

المجتمع المدني ودوره في دعم الديمقراطية وتعزيز المشاركة السياسية والاقتصادية عند أليكسيس دو توكفيل

(Civil Society and Its Role in Supporting Democracy and Enhancing Political and Economic Participation According to Alexis de Tocqueville)

*1 حميدة فاطيمة

¹ جامعة ابن خلدون – تيارت- (الجزائر)،

fatima.hamida@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2024/11/08 تاريخ القبول: 2024/12/15 تاريخ النشر: 2024/03/04

ملخص:

أظهرت الدراسات في ميدان الفلسفة والعلوم الاجتماعية والسياسية أن المجتمع المدني أصبح يشكل عصب الحضارة المعاصرة. ولقد تطور تدريجياً حتى غدا أحد المفاهيم المحورية في الحقل السياسي لكل دولة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كون هذا المجتمع يلعب دوراً حيوياً في توطيد مبادئ الديمقراطية ويقوي الممارسات المرتبطة بها، ويعمل على تفعيل الخطاب السياسي والمشاركة الاقتصادية وتشجيع العمل التعاوني بين الدولة من جهة ومختلف فئات المجتمع من جهة أخرى، مما يساهم في التعبير عن حرية الإرادة لكل فرد وبالتالي يتحقق الانسجام بين شرعية الدولة والجمعيات المدنية وهذا ما حاول المنظر السياسي أليكسيس دو توكفيل إبرازه.

لذلك فإن الهدف من هذه الورقة البحثية هو إبراز المساهمة الفعالة للمجتمع المدني في المجالين السياسي والديمقراطي من المنظور التوكفيلي، حيث توصلنا في الأخير إلى أهمية مثل هذا المجتمع من أجل تهدئة الأوضاع في عالمنا الكلمات مفتاحية: المجتمع المدني؛ الديمقراطية؛ المشاركة السياسية؛ التعاون الاقتصادي؛ أليكسيس دو توكفيل.

Abstract:

Studies in the fields of philosophy, social, and political sciences have shown that civil society has become the backbone of contemporary civilization. It has gradually developed until it became one of the central concepts in the political domain of every country. The reason for this is likely due to the fact that this society plays a vital role in instilling the principles of democracy, strengthens the practices associated with it, activates political discourse, encourages economic participation, and fosters cooperation between the state on one hand and various social groups on the other. This contributes to expressing harmony between the legitimacy of the and civil associations. This is something that political theorist Alexis de Tocqueville sought to highlight.

Therefore, the goal of this research paper is to emphasize the effective contribution of civil society in the political and democratic fields from a Tocquevillian perspective. In the end, we conclude that such a society is important in calming tensions in our world.

Keywords: Civil society; democracy; political participation; economic cooperation; Alexis de Tocqueville.

مقدمة:

لعلنا لو تتبعنا الصيرورة التاريخية للمجتمعات الإنسانية من أقدم العصور وإلى اليوم سوف نجدها عرفت الكثير من التغيرات على مستويات مختلفة، سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي وحتى الثقافي والفني، وهذه التغيرات نتيجة حتمية لتطور الوعي الإنساني. ومع مرور الوقت تبلور مايسمى بالمجتمع المدني الذي يعود بشكل جذري وأساسي إلى نظرية العقد الاجتماعي حيث أكد كل من الفيلسوف جون لوك و توماس هوبز وجون جاك روسو أن الإنسان كان يعيش في حالة الطبيعة الأولى والحياة في مثل هذه الحالة تفتقر إلى التنظيم السياسي والاجتماعي حيث يعم العنف وتنتشر الفوضى ثم انتقل في مراحل زمنية لاحقة إلى الحالة المدنية أي الاندماج ضمن مجتمع مدني متناسق يقوم على ضوابط شرعية وقانونية، لكن هذا الانتقال ليس عملية عشوائية وإنما هو عملية منظمة وفق أسس وقواعد تحدد لكل فرد حقوقه وواجباته ضمن هذا الكيان الاجتماعي الذي ينتهي إليه.

عرف بعد ذلك المجتمع المدني اهتماما متزايدا خاصة في عصر المجتمعات التي عرفت تنظيمات اجتماعية تتميز بالتراتبية الطبقية في وقت كانت كل من الأنظمة الأرستقراطية والبرجوازية تحكم قبضتها على مختلف المجتمعات الأوروبية عامة وعلى المجتمع الفرنسي بصفة خاصة، مما أدى إلى تدهور الوضع الاجتماعي لبقية أفراد الشعب في ضل هذا الوضع برز المفكر الفرنسي ألكسيس دو توكفيل الذي حاول من خلال مؤلفه الشهير "الديمقراطية في أمريكا" أن يبرز امتعاضه من النظم الاجتماعية والسياسية في المجتمع الفرنسي، محاولا في المقابل وعبر دراسته للمجتمع الأمريكي توضيح أهمية المجتمع المدني ودوره إرساء دعائم الديمقراطية وتعزيز العمل التشاركي في كل من الميدان السياسي والاقتصادي، من هذا المنطلق جاءت إشكالية ورقتي البحثية هذه على النحو التالي: ماهو مفهوم المجتمع المدني من المنظور التوكفيلي؟، وكيف في وسع هذا المجتمع أن يساهم في نشر ثقافة الديمقراطية؟ ثم إلى أي مدى تساهم هيئات المجتمع المدني في دمج أفراد المجتمع في العمل السياسي والاقتصادي؟

وبغرض تحليل حيثيات هذه الإشكالية استندت إلى المنهج التحليلي من أجل فهم طبيعة العلاقة بين المجتمع المدني من جهة وبين كل من الديمقراطية عالم السياسة والاقتصاد من جهة أخرى إذ سوف يبين لنا ألكسيس دو توكفيل مدى التأثير العميق لهيئات المجتمع المدني على الصورة العامة للمجتمعات الإنسانية.

1. ألكسيس دو توكفيل سيرته الذاتية والعلمية

1.1. شخصيته

ألكسيس شارل هنري كليرل دو توكفيل HENRICLEREL de tocqueville، ولد في باريس 29 جويلية 1805م ، وهو ينحدر من عائلة أرستقراطية فرنسية عريقة والده "إرفيه دو توكفيل HERVE de tocqueville" وأمه لويز LOUIS ولقد جاء إلى عالمنا بشق الأنفس، فقبل مولده باثني عشر عاما كاد عهد

الإرهاب أن يقضي على والديه¹، لقد كان والده أحد زعماء الفكر السياسي في فرنسا مما عرضه للكثير من المضايقات، سواء في فترة الإرهاب أو لاحقا أثناء الاضطرابات السياسية وقيام الدولة الجديدة بسبب محاكمة لويس السادس عشر.

يعتبر دو توكفيل الابن الأصغر لعائلته خلافا لأخويه إيبوليت HIPPOLYTE وإدوارد EDOUARD، ولقد عاش توكفيل شابا "مُعتمتا بسبب الثورة، وطاردته أشباحها وهو في مرحلة الرجولة، فكان يتساءل: لماذا قامت الثورة؟ وما الذي جاءت به؟ وما هي بالضبط آثارها الباقية على الحياة الفرنسية؟"² إن هذا الوضع السياسي المضطرب أثر كثيرا على نفسية ألكسيس وصحته حيث أصبح يصاب لاحقا بنوبات قلق وتدهورت أوضاعه الصحية، كما أن التساؤلات السابقة الذكر وغيرها هي التي بلورت الفكر السياسي لدى توكفيل وشكلت اللبنة الأساسية للمشروع الديمقراطي التوكفيلي.

2.1 أفكاره

لقد كان توكفيل رجلا مثقفا و "كاتب صاحب أسلوب بارع وهو أيضا عالم اجتماع، وقد كان مدافع عن السياسة ومصلحا فيها في نفس الوقت، كما كان مؤرخا لأنه كتب عن الديمقراطية في أمريكا، وكتب كذلك عن النظام القديم في فرنسا"³، يتضح من خلال هذا أن أعمال توكفيل لم تنحصر في المجال السياسي فقط بل كان رجلا موسوعيا خلف الكثير من الأعمال ففي ميدان الأدب ألف الكثير من القصص القصيرة، و كان أيضا عالم اجتماع.

بدأ توكفيل مسيرته التعليمية على يد القديس لوسيار حيث عمل مدرسا خاصا له و"في الفترة الممتدة ما بين 1820-1823 تابع دراسته بالمدرسة الملكية لماتز Matez، ثم انتقل إلى باريس حيث زاول دراسته الجامعية ما بين 1823-1826، في فرع القانون، وحصل على شهادة الليسانس في 1826، وما بين ديسمبر 1826 وأبريل 1827 زار إيطاليا وصقلية رفقة أخيه إدوارد"⁴، يمكن القول أن الفكر التوكفيلي كان متعدد المشارب فالأب لوسيار ساعد في تكوينه في المجال الديني والأخلاقي، كما ساهم إطلاعها على التراث الأدبي والفلسفي الفرنسي خاصة فلسفة ديكار و فلاسفة العقد الاجتماعي في نمو وعيه السياسي، ولا يمكن أن نهمل كذلك أثر الرحلات التي قام بها على مساره العلمي والمعرفي بصفة عامة.

بعد مسيرة علمية طويلة بدأ مسيرته المهنية حيث عمل "قاضيا في محكمة فرساي 1828 ثم انتخب عام 1839 عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية إلى غاية 1849، وفي نفس السنة أصبح نائبا لرئيسها

¹ - جوزيف إستاين، (2010)، المرشد إلى الديمقراطية، تر: سمية ممدوح الشامي، ط 01، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ص 13.

² - المرجع نفسه، ص 14.

³ - هارفي سي مانسفيلد، (2017)، توكفيل مقدمة قصيرة جدا، تر: مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ص 07.

⁴ - بودواو عبيد، (2015)، ألكسيس دوتوكفيل قراءة في بعض مواقفه وأفكاره، مجلة القرطاس، العدد 02، 2015، ص 188.

وزير الخارجية الفرنسية لينسحب عن الحياة السياسية عام 1851⁵، إن توكفيل واصل مسيرة العمل السياسي الذي بدأها والده نظرا لفطنته ودهائه شغل مناصب سياسية جد حساسة في الحكومة الفرنسية الجديدة. ليستقيل من العمل السياسي كليا سنة في ماي سنة 1832.

بعد أن ترك العمل السياسي توجه نحو الولايات المتحدة الأمريكية رفقة زميله غوستاف دو بومو سنة 1931، من خلال مكوثه في الولايات المتحدة الأمريكية ودراسته المعمقة واطلاعه الواسع على الأوضاع الاجتماعية والسياسة للمجتمع الأمريكي توج مجهوداته بمؤلفه الشهير "الديمقراطية في أمريكا". سافر بعد ذلك إلى لندن حيث سقط "مريضا سنة 1858، وينتقل على إثر ذلك إلى كان Cannes وفي يوم 16 أفريل 1859 يلفظ أنفاسه الأخيرة بكان"⁶، وهنا انتهت مسيرة أحد أعظم رجال القرن التاسع عشر مخلقا بذلك وراءه تراثا فكريا هائلا، لا زال يدرس إلى يومنا هذا.

2. تحديد مفاهيمي

تعتبر مسألة تحديد المفاهيم وضبطها قضية جوهرية في عملية البحث المعرفي والفلسفي وذلك بهدف التحديد الدقيق للحقائق ورفع أي غموض يكتنفها، لأن الكثير من الكلمات تتغير طبيعتها المفهومية باختلاف السياق الذي تستخدم فيه، أو باختلاف الإطار الأيديولوجي والقيمي للباحث، مما يجعل هذه العملية معقدة نسبيا خاصة في حقل الدراسات التي تنتمي إلى ميدان العلوم الإنسانية بصفة عامة، وميدان الفلسفة بصفة خاصة. ولذلك نجد الكثير من المفاهيم يطغى عليها نوع من الضبابية ولعل المجتمع المدني من أهمها.

1.2. في مفهوم المجتمع المدني

- المجتمع المدني كمفهوم عام

إن المجتمع المدني من المصطلحات التي يتردد استخدامها بكثرة، لكن نادرا ما يتم فهمه على الوجه الصحيح، إذ يعتبر أحد المفاهيم الفضفاضة التي تكتسي قراءات متعددة لدى أشخاص مختلفين من الناحية الفكرية. ويمكن القول بصفة عامة أن المجتمع المدني بمعناه الواسع موجود منذ أقدم العصور إلا أنه بدأ يحتل الصدارة في ميدان الدراسات السياسية والاجتماعية في الفكر الغربي الأوروبي مع نهاية القرن الثامن عشر.

بإمكاننا أن نعرف المجتمع المدني من منظور أنتونيو غرامشي بأنه: "مجموعة من البنى الفوقية مثل: الأحزاب والمدارس والجمعيات والصحافة والأداب والكنيسة، ويقابل المجتمع المدني لدى غرامشي

⁵ - ألكسيس دو توكفيل، (2008)، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، تز: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 07.

⁶ - بودواو عبيد، مرجع سابق، ص 192.

المجتمع الرسمي أو ما يسمى بسلطة الدولة"⁷، يعني ذلك أن المجتمع المدني يضم جملة الجمعيات والمؤسسات التي تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي، ويعتقد غرامشي بأنه العلاقة بين المجتمع المدني والسلطة السياسية يخيم عليها نوع من التوتر الدائم والصراع المعلن أو الخفي.

يمكن القول أن المجتمع المدني يشمل كل التنظيمات التي توجد خارج إطار الأسرة والدولة فهو عبارة عن "شبكة من التنظيمات والممارسات والضوابط التي تنشأ بالإرادة التطوعية الحرة لأعضائها، خدمة لمصلحة أو قضية، أو تعبيراً عن قيم ومشاعر يعتز بها هؤلاء الأفراد، مع استقلال نسبي عن الدولة وملزمة في أنشطتها بالتسامح واحترام الآخرين"⁸، ويضم المجتمع المدني الجمعيات المختلفة التطوعية والخيرية والثقافية والبيئية والنقابات العمالية التي تمثل العمال والمنظمات الدينية مثل الكنائس والمساجد المؤسسات الأكاديمية والتعليمية إضافة إلى وسائل الإعلام المستقلة من إذاعة وتلفزيون هذه الهياكل تتميز بالتخطيط الذاتي في رسم مشاريعها وتحديد أهدافها إلا أنها في الوقت ذاته تبقى خاضعة للنظام السياسي العام الذي يحكم الدولة وتسير وفق قوانينه.

- المجتمع المدني عند دوتوكفيل

إن مفهوم المجتمع المدني عند دوتوكفيل لا يختلف عن السياق العام الذي ورد فيه من حيث كونه يقوم "على أساس استقلالية عن الدولة وأجهزتها وسلطتها، أي انفصال المؤسسات الحكومية الرسمية عن تنظيمات المجتمع المدني هيكلياً وإدارياً"⁹، و يرى أن المجتمع المدني يتأسس على إرادة الشعب الحرة ويعبر عنها في الآن ذاته، لأن هذه التنظيمات غير الحكومية تعمل على خدمة جميع أطراف المجتمع بما فيها الطبقة البسيطة، كما أنها تلتزم بقواعد قيمية وأخلاقية التي تتمثل في التعاون والمحبة والمشاركة مجسدة بذلك روح الإنسانية حاملة رسالة نبيلة تتمثل في الدعوة إلى تحقيق العدالة ونشر الديمقراطية.

2.2. في مفهوم الديمقراطية

عرفت التجمعات الإنسانية منذ فجر ظهورها وإلى يومنا هذه أنظمة سياسية متعددة بتعدد الحضارات ومختلفة باختلاف بنياتها الاجتماعية القيمية والأخلاقية، ولعل من أهم الأنظمة التي عرفت حضوراً قوياً على الساحة السياسية نجد الديمقراطية.

- معنى الديمقراطية

إن الديمقراطية Demoskratias مفهوم جد قديم أبدعه العقل الإغريقي مثله مثل الفلسفة، لذلك نجد أن الفكر الفلسفي اليوناني قد بلغ ذروته في الحقبة التي سادت فيها الديمقراطية كنظام

⁷ - الحبيب الجناحاني، (1999)، المجتمع المدني بين النظرية والتطبيق، الكويت، مجلة عالم الفكر، المجلد 27، العدد 3، 1999، ص 31.

⁸ - سعد الدين إبراهيم، (2000)، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي، دار قباء للطباعة والنشر- والتوزيع، مصر، ص 86.

⁹ - زرقة دليلة، (2022)، قراءة سوسيولوجية في مفهوم المجتمع المدني، مجلة تطوير، المجلد 09، العدد 01، 2022، ص 125

سياسي رسمي للبلاد آنذاك. لذلك يمكن أن نعرف الديمقراطية بأنها " مصطلح يوناني مكون من جزئين Demos وتعني الشعب و Kratein وتعني يحكم أو يسود، وبالتالي يمكن ترجمة الديمقراطية حرفيا إلى حكم الشعب أو حكم الأغلبية. تُعتبر الديمقراطية، كشكل من أشكال الدولة، متميزة عن الملكية والأرستقراطية والدكتاتورية"¹⁰، ثم عرف هذا المصطلح بعد انتشارا واسعا واستخدم في جميع الألسن.

يمكن القول أن الديمقراطية قامت على أنقاض أنظمة الحكم السياسية السابقة التي كانت تتميز بنوع من العنصرية، وتكرس للطبقية من حيث كونها تضع مقاليد الحكم بيد أسرة معينة أو طبقة محددة، لكن النظام الديمقراطي يقوم بقلب موازين الحكم لتصبح السيادة في يد الأغلبية، ولعل من أهم التعريفات الأكثر رواجاً لكلمة ديمقراطية هو تعريف الأمريكي أبراهام لينكون حيث قال "الديمقراطية هي حكم الشعب بواسطة الشعب ولأجل الشعب"¹¹، فالديمقراطية تحول النظام السياسي من كونه أداة للسيطرة على الشعب، لتجعله وسيلة للتعبير الحر عن رأيه ومواقفه المختلفة اتجاه الهيئة الحاكمة، لكن يجب الإشارة إلى أن حكم الشعب لا يعني الغوغاء والفوضوية وإنما للديمقراطية مقوماتها.

- المفهوم التوكفيلي للديمقراطية

إن الرحلات التي قام بها دوتوكفيل ساهمت بشكل كبير في بلورة أفكاره السياسية، ومنحتها عمقا ونضجا كبيرين، ولعل رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية شكلت منعرجا حاسما في الفكر السياسي الفرنسي بصفة عامة وفي الفكر السياسي التوكفيلي على وجه الخصوص.

تعد الديمقراطية الموضوع المركزي لفكر دوتوكفيل السياسي، وهذا ما يبرز بشكل جلي في مؤلفه "الديمقراطية في أمريكا" الذي يتكون من مجلدين صدر الأول عام 1835 م فيما صدر الثاني عام 1840 م، عبر هذا الكتاب عن عبقرية مؤلفه الذي جمع بين مهارة السياسي المحنك وعالم الاجتماع الخبير. ليقدم لنا دراسة تشريحية للبنى السياسية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية للمجتمع الأمريكي، مع أن هدف توكفيل كان سياسي بالدرجة الأولى حيث اختار أمريكا دون غيرها لأنها الأرض التي تشهد فيها الديمقراطية نموا متسارعا كمنظريه وكتطبيق في الآن ذاته. لكن وجه التنويه هنا أنه لا ينبغي أن يؤدي بنا العنوان إلى حصر الديمقراطية في المجتمع الأمريكي حيث "أوضح توكفيل في مقدمته أنه في حين أن الكتاب يدور حول الولايات المتحدة فإنه موجه إلى القراء الفرنسيين بصورة أساسية مثلما هو موجه إلى باقي القراء"¹².

¹⁰ - Paula Becker, (2008) WHAT IS DEMOCRACY?, Realized by KMF-CNOE & NOVA STELLA, with the assistance of the Friedrich-Ebert-Stiftung (FES), and with the collaboration of Friedel Daiber (University of Trier), p 4.

¹¹ - الباز داود، (2006)، النظم السياسية للدولة والحكومة في ضوء الشريعة الإسلامية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ص 96.

¹² - جوزيف إستانين، مرجع سابق، ص 54.

أراد توكفيل أن يتجاوز الفهم الكلاسيكي للديمقراطية الموروث عن الفكر الإغريقي على أنها نظام سياسي فقط على نحو ما ذكرنا سابقا واعتبرها بمثابة حالة اجتماعية تمثل نتيجة حتمية للصيرورة التاريخية لبنية المجتمع المجتمعات الإنسانية لذا " الديمقراطية ليست مجرد تقنية إجرائية لاختيار القادة أو اتخاذ القرارات، ولا مجرد واقع قانوني وسياسي، بل هي حالة اجتماعية تشمل العالم السياسي كجزء من هذه الحالة، متكيفًا مع باقي أجزاء المجتمع"¹³، لذلك فإن الديمقراطية لا يمكن فهمها بمعزل عن سياقها الاجتماعي، ومن هنا يصبح النظام السياسي والقانوني هو جزء من المجتمع وخاضع له وليس العكس.

في هذه النقطة بالذات يتضح لنا التعارض بين الانتماء الاجتماعي لتوكفيل وبين فكره السياسي حيث يميل إلى ترجيح كفة النظام الديمقراطي على النظام الأرسطراطي إذ قال: "تنجّه القوانين الديمقراطية عادة إلى توفير السعادة لأكبر عدد من ممكن من الناس، لأنها تصدر عن غالبية المواطنين فيها، وعلى العكس من ذلك نجد القوانين في البلاد الأرسطراطية تتجه إلى تركيز الثروة والسلطان في يد الأقلية، لأن الأرسطراطية بطبيعتها"¹⁴، يظهر توكفيل في كتابه "الديمقراطية في أمريكا" سخطه وامتعاضه من التشريعات الأرسطراطية، لأنها في رأيه المسؤولة عن توتر أوضاع المجتمع الفرنسي وتفككه، وتهيئ الكثير من الأفراد.

اعتبر دوتوكفيل المساواة بمثابة لب الفكر الديمقراطي، لذلك كان ناقما على الأوضاع في المجتمع الفرنسي وعلى الطبقة الأرسطراطية التي ينحدر منها بالأصل، وبما أن فكرة المساواة تستهوي السواد الأعظم من الناس لما فيها قيم عادلة، فإن الديمقراطية في حقب مستقبلية ليست بالبعيدة سوف تنتشر على أوسع نطاق، لذلك حسب توكفيل لم يعد في وسعنا الحديث عن شرعية النظام الديمقراطي من عدمه، لأنه أصبح يمثل حتمية سياسية واجتماعية وإنما وجب علينا أن نطرح سؤالاً أكثر إلحاحاً وجدياً وهو كيف يمكن أن نستثمر فوائد النظام الديمقراطي من أجل الثورة على أنظمة الحكم التقليدية المحملة بكل أصناف الظلم والعنصرية.

تجدد الإشارة إلى أن توكفيل حاول إخراج الديمقراطية عن النطاق السياسي لتشمل النطاق الاجتماعي كذلك لكنه يؤكد على نحو ما أكد الإغريق سابقا على أن مبدأ سيادة الشعب يشكل جوهر الفكر الديمقراطي، لكنه ووفق توكفيل وجب العودة إلى هذا المبدأ من جديد لأنه تعرض للتميع والتزييف عبر حقب تاريخية مختلفة وأسماء استخدامه لأسباب ومصالح شخصية، ولإعادة هذا المفهوم لسياقه الصحيح كان لابد من العودة للفكر الأمريكي حيث صرح قائلاً: "أما في أمريكا، فليس مبدأ سيادة

¹³ - Isidre MOLAS,(1990), Alexis de Tocqueville: The Traditionalist Roots of Democracy, Working Paper n. 9, Universitat Autònoma de Barcelona, Barcelona , p 07.

¹⁴ - ألكسيس دي توكفيل، (2004)، ج 1، الديمقراطية في أمريكا، تر: أمين مرسي قنديل، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ص 210.

الشعب بالمبدأ العقيم، ولا هو بالمستور الخفي كما هي الحال في بعض الأمم، فقد أقره العرف وأعلنته القوانين، وينشر في أمريكا بحرية كاملة، ويصل من دون عائق إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه من النتائج المترتبة عليه"¹⁵، إن مبدأ سيادة الشعب لم يكن مجرد شعارا طوباويا فارغا بل كان يتميز بالفعالية والشفافية في التعبير عن صوت الشعب الأمريكي وإرادته إلى أقصى الحدود.

3. دور المجتمع المدني في تنمية الفكر الديمقراطي وتعزيز المشاركة السياسية والاقتصادية

لما كان المجتمع المدني يمثل المأوى الشرعي لأبناء المجتمع والممثل لصوتهم والمعبر عن انشغالاتهم في الكثير من المناسبات والمحافل فإنه كذلك يلعب دورا فعالا في إرساء الدعائم الجوهرية التي تجعل من المجتمع متوازن من الناحيتين السياسية والاقتصادية، وذلك لما توفره مختلف هيئاته من مساحة لتوفير الحرية والتعبير عن الإرادة الحرة للمواطنين مما يشكل بيئة صالحة للممارسة الفكر الديمقراطي

3.1. أثر المجتمع المدني في تنمية الفكر الديمقراطي والسياسي

بعد أن قام دوتوكفيل بدراسة تحليلية للمجتمع الأمريكي من ناحية البنى السوسيوسياسية خلص إلى نتيجة مفادها الترابط الشديد بين هيئات المجتمع المدني المختلفة من جهة والديمقراطية من ناحية أخرى، إذ يمكن أن نقول من وجهة نظر التوكفيلية أن المجتمع المدني يمثل الحاضن الأساسي والأب الراعي للديمقراطية، يقول دوتوكفيل عن الديمقراطية في مقدمة كتابه الشهير "الديمقراطية في أمريكا": "تؤثر بشكل قوي على ما هو أبعد من العادات السياسية والقوانين، وإنما لا تكتسب تأثيرا أقل على المجتمع المدني مما تكسبه على الحكومة"¹⁶ إن العلاقة بين المجتمع المدني والفكر الديمقراطي هي علاقة معقدة وجد متشابكة، إذ لا يمكن أن نتصور قيام مجتمع ديمقراطي في نظر دوتوكفيل بمعزل عن منظمات المجتمع المدني المختلفة، ويمكن فهم هذه العلاقة من خلال:

- التشجيع على المشاركة السياسية

يرى دوتوكفيل أن المجتمع المدني يمثل صوت الشعب، لأنها يعمل من خلال هيئاته المختلفة تبليغ صوت الفرد للهيئات السياسية الرسمية، هذا إضافة إلى أن المجتمع المدني ينمي ثقافة المشاركة السياسية لدى أفراد المجتمع وذلك عبر النوادي والجمعيات المختلفة و "هكذا تسير الجماعات المدنية السبيل إلى قيام الجماعات السياسية، ومن جهة أخرى تقوي هذه الجماعات السياسية الجماعات التي تسعى إلى أغراض مدنية"¹⁷، فالجمعيات المدنية من خلال تنوير الوعي الفردي تساهم في تكوين نوع جديد من الجمعيات وهي الجمعيات السياسية والتي تضم شريحة كبرى من أبناء المجتمع.

¹⁵ - المرجع نفسه، ص 60.

¹⁶ - Isidre MOLAS, opcit, p 07.

¹⁷ - ألكسيس دي توكفيل، (2004)، الديمقراطية في أمريكا، تر: أمين مرسى قنديل، ج 2، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ص 488.

فبالرغم من أن الجمعيات المدنية ليس هدفها سياسي، ولكنها تسعى إلى إقحام الفرد في الميدان السياسي وذلك للحفاظ على العدالة الاجتماعية من جهة وتجنباً لعودة قيام أنظمة سياسية جائرة ومستبدة من جهة أخرى وبالتالي المساهمة في الحفاظ على نسق اجتماعي يتميز بالانسجام والتوازن.

- التحذير من مخاطر الفردانية

على الرغم أن دو توكفيل كان معجبا بالنظام الديمقراطي إلا أنه كان يحذر من أهم مخاطره المتمثلة في طغيان النزعة الفردانية، وهذه الأخيرة هي عبارة عن توجه فكري يبني أساسا على منح الأولوية للفرد على حساب المجتمع حيث يتم وضع المصالح الشخصية فوق كل اعتبار اجتماعي أو قانوني أو ديني أو قيمي، بأبسط تعبير تصبح المنفعة الشخصية أشرف غاية بالنسبة إلى الفرد.

إن الفردانية تمثل أكبر تحدي يواجه المجتمع المدني لأنها تسير وفق تيار معاكس له تماما لكونها تدفع الفرد دفعا نحو العزلة الاجتماعية مما يؤدي إلى ضعف الروابط الاجتماعية وهذا التخوف يمكن أن نتلمسه من خلال قول دوتوكفيل: "في الفترة التي تعقب قيام جماعة ديمقراطية على أنقاض الأرستقراطية، قد يذهل الإنسان من جراء ما يرى من انعزال الناس بعضهم عن بعض"¹⁸ فكل فرد منشغل بمحاولة تحقيق مصالحه الخاصة مما يؤدي تضائل مساهمته في الحفاظ على صيرورة مؤسسات المجتمع المدني، يؤثر على الوضع السياسي والاجتماعي وحتى الروحي بصفة عامة.

إضافة إلى ذلك فإن الفردانية والتي تعد أحد المفردات الأساسية للنظام الديمقراطي تهدد الديمقراطية في حد ذاتها، وكأن الديمقراطية تحمل في طياتها بذور فناءها، إذ أن انشغال الناس بالحياة الخاصة وإهمال المشاركة في الحياة العامة سواء في جانبها السياسي أو الاقتصادي يبرئ الأرضية المناسبة لعودة طغيان الأنظمة المستبدة من جديد.

يرى دو توكفيل أن في وسع المجتمع المدني مقاومة خطر تيار الفردانية، وذلك عبر التأكيد على القيم الإنسانية ونشر ثقافة العمل التعاوني، ومن هنا تتحقق مصلحة الفرد والجماعة في الآن ذاته ويتم تفكيك النزعة الأنانية، والعمل على ما يخدم الصالح الخاص والعام في نفس الوقت.

3.2. دور المجتمع المدني في تعزيز المشاركة الاقتصادية

إن أهمية المجتمع المدني عند دوتوكفيل لا تقتصر على الجانب السياسي، بل تمتد إلى الجانب الاقتصادي حيث يساهم هذا الصنف من المجتمع في تحقيق التنمية الاقتصادية وذلك من خلال:

- القضاء على التراتبية الطبقية

التقسيم الطبقي الذي شرعته الحضارة السومارية قديما والذي كان ناشئا عن تطور الزراعة كان له تأثير طويل الأمد على كيفية تنظيم المجتمعات الإنسانية والتي يعد المجتمع الفرنسي من أبرزها، حيث

عرف هذا الأخير عرف بدوره تفاضلا طبقيًا، بين ثلاث فئات حددها توكفيل على النحو التالي: الطبقة الأرستقراطية وهي الطبقة العليا، ثم تليها البرجوازية أو الطبقة الوسطى، ثم تليها أدنى طبقة وهي طبقة الشعب، تعيش هاته الطبقات الثلاث في صراع دائم ينتهي إلى قيام ثورة تستقي مبادئها وأهدافها من الفكر الديمقراطي الذي تدعمه وتحتضنه مؤسسات المجتمع المدني.

بالإضافة إلى ما سبق يُساهم المجتمع المدني في محو التراتبية الطبقية من خلال الدعوة إلى المساواة مما يؤدي إلى قيام مجتمع جديد، وهو المجتمع ذو الطبقة الواحدة، يقول دو توكفيل في الجزء الثاني من كتابه "الديمقراطية في أمريكا": "فقد لاحظ كل امرئ في عصرنا أن حب المساواة هذا يزداد كل يوم رسوخا في نفوس الناس، وبخاصة في فرنسا، فكم من مرة قيل بأن تعلق عصرنا بالمساواة لأشد من تعلقهم بالحرية وأوثق منه"¹⁹، لعلق تعلق الشعب الفرنسي بالمساواة لأنها تؤدي تدريجيا إلى تآكل الفوارق الطبقية ويتولد لدينا مجتمع متجانس اقتصاديا واجتماعيا.

إن الأطراف المختلفة المشكلة للمجتمع المدني تدعم وبشدة فكرة الطبقة الواحدة لذلك "من الميسور أن يُقام مبدأ المساواة في المجتمع المدني... فقد يكون للناس في هذا المجتمع حقوق متساوية من حيث استمتاعهم بنفس المميزات، والالتحاق بنفس المهن، والتردد على نفس المحلات، جملة القول لهم الحق في العيش بنفس الطريقة والسعي وراء جمع المال بطريقة واحدة"²⁰، نلاحظ هاهنا انهيار المفاهيم صورة الاقتصاد التقليدية التي كانت مبنية العبودية والاضطهاد بشكل يتناسب مع التوزيع الطبقي، وبرز اقتصاد جديد يتميز بالتوزيع العادل للثروات يتمتع فيه الجميع بنفس الحقوق ولهم الحق في الانخراط في ممارسة النشاط الاقتصادي وجمع الثروة ويكون ذلك في السياق القانوني الذي تحدده الدولة.

- التشجيع على العمل الجماعي

أكد دو توكفيل على أن هيئات المجتمع المدني من جمعيات وأندية وجهات إعلامية تعمل على تعزيز روح العمل الجماعي، من خلال التعاون بين مختلف الشرائح الاجتماعية فقد "يحدث أن يكون لبعض الناس مصلحة مشتركة وقد يكون ذلك الأمر مشروعًا تجاريًا، أو مغامرة في ميدان الصناعة فيجتمع هؤلاء الناس بعضهم ببعض ويتحدثون، ثم لا يلبثون أن يألّفوا مبدأ تكوين الجمعيات هذا شيئًا فشيئًا. وكلما ازداد عدد المشروعات الصغار ازداد الناس قدرة على التعاون"²¹، هذا الأمر يساهم في بناء اقتصاد قوي ومتماسك، متكامل الأركان .

19 - المرجع السابق، ص 468.

20 - المرجع نفسه، ص 468

21 - المرجع نفسه، ص 488.

كما يمكن اعتبار المجتمع المدني بمثابة المؤسسة الشرعية التي تعمل على رعاية المصالح الاقتصادية لأفراد المجتمع، وحماية حقوقهم في هذا المجال، مما يقضي على احتكار الثروات في يد الأقلية ويجعلها متاحة لكبير قدر من الأفراد، وهذا الأمر من شأنه أن يذيب التفاوت ويخلق نوع من التوازن الاقتصادي، وبالتالي يتحقق الاستقرار الاجتماعي.

4. قراءة نقدية

من خلال دراستنا لرؤية دوتوكفيل للعلاقة بين المجتمع المدني وبين الديمقراطية عبر الوقوف على تجربة حية عاشها وعاصرها هذا الرجل في الولايات المتحدة الأمريكية، يمكن أن نقيم طرحه من زاويتين مختلفتين

1.4. المكاسب

لقد حاول دوتوكفيل من خلال إبراز دور المجتمع المدني في تعزيز قيم الديمقراطية، أن يبين قيمة وأهمية الدور الفعال الذي يلعبه المجتمع المدني في تحسين أوضاع المجتمع، ومنه إقامة مثل هذا الصنف من المجتمع والذي يكون محملا بقيم الديمقراطية ومشعبا بقيم الإنسانية، من شأنه أن يقوض أنظمة الحكم التقليدية المستبدة والطبقية على غرار الأرستقراطية والبرجوازية التي كانت شائعة في المجتمعات الأمريكية.

2.4. المآخذ

لكن دوتوكفيل انطلق في مشروعه من دراسة المجتمع الأمريكي وحاول تعميمها، لكن في واقعنا نجد بأن تعميم التجربة قد لا يصح لأن لكل مجتمع خصوصياته الفكرية والقيمية والاجتماعي، فما يصلح فالبيئة المجتمعية الأمريكية قد لا يصلح في بيئة مجتمعية أخرى، يضاف إلى ذلك أن أمريكا بمجتمعها المدني وبفكرها الديمقراطي الذي أهر دوتوكفيل هي نفسها أمريكا التي كرست للفكر الرأسمالي المتوحش، ولعودة الطبقة الظالمة من خلال التقسيم الاقتصادي الذي أقامه النظام الرأسمالي إلى عامل ومالك، ناهيك عن ما يتولد عنه اغتراب وتوسع الاستعمار غير المباشر في شكله الاقتصادي.

كما الإديولوجيا البراغماتية هي وليدة الفكر الأمريكي مع كل من ويليام جيمس وبيرس وجون ديوي الذين رفعوا شعار المصلحة فوق كل اعتبارات دينية أو أخلاقية، فيكيف لمجتمع يفتقر إلى القيم الروحية ويقدم كل ما هو مادي أن يؤسس لقيم إنسانية عالمية؟ ففاقد الشيء لا يعطيه.

بالإضافة إلى أن الفكر التوكفيلي في عمقه يتسم بنوع من التناقض، فهو توجه لدراسة المجتمع الأمريكي ونصب منه نموذجا للديمقراطية وأعجب وبشدة بتنظيمات المجتمع المدني الأمريكية، وعبر عن سخطه الصريح اتجاه الأنظمة التي كانت قائمة في فرنسا آنذاك على غرار الأرستقراطية والبرجوازية وما يتولد عنها من تراتبية طبقية، إلا أن موقفه اتجاه احتلال فرنسا للجزائر كان معارضا لمبادئه القيمية حيث لعب دورا كبيرا في إضفاء الشرعية على الاحتلال الفرنسي للجزائر، بل وذهب إلى أبعد من ذلك حيث عبر عن دعمه الشديد للمشروع الاستيطاني الفرنسي على الأراضي الجزائرية وكان من بين العقول المدبرة

لهذه العملية. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن دو توكفيل لم يتمكن فعلا من التخلص من بذور انتماءاته الأرستقراطية الاستعلائية.

الخاتمة:

بناء على تحليلنا السابق للعلاقة بين المجتمع المدني وكل من الديمقراطية والجانب السياسي والاقتصادي من منظور الفرنسي ألكسيس دو توكفيل يمكن الخروج بالنقاط الجوهرية التالية:
- إن الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي عاشها دو توكفيل منذ صغره وحتى شبابه قد ساهمت وبشكل كبير في بلورة أفكاره المختلفة.

- شكلت رحلة دو توكفيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية منعرجا حاسما في مساره المعرفي، حيث أن الأوضاع السائدة في ذلك المجتمع شكلت المادة الخام لأهم مؤلفه "الديمقراطية في أمريكا" والذي استقينا منه نحن بدورنا الكثير من الأفكار، ويشير توكفيل أن هذه الدراسة حتى وان كانت قائمة في أساسها حول المجتمع الأمريكي إلا أن الكتاب موجه إلى كل قارئ عامة وإلى القارئ الفرنسي على وجه الخصوص.

- بالرغم من الانتماء الأرستقراطي لهذا المفكر، إلا أنه عبر وبكل صراحة عن رفضه لمثل هذا النظام وما ينتج عنه من ترتيب هرمي لأبناء المجتمع الواحد، لذلك أراد أن يجعل من مؤلفة السابق الذكر بمثابة دليل للمثقف الفرنسي للتخلص من ظلم ذلك النظام وإحلال قيم اجتماعية جديدة، لذلك فإن الديمقراطية في أمريكا أكثر من مجرد كتاب إنه دعوة إلى الثورة والتحرر.

- أراد دو توكفيل أن يجعل من المجتمع المدني، بديلا مناسباً للمجتمع الأرستقراطي، لأن المجتمع المدني يزخر بمنظومة قيمية تشجع على الأخلاقيات الإنسانية وتحفظ كرامة الأفراد، ومن أهم قيمه الديمقراطية.

- ربط دو توكفيل بشكل وثيق بين الديمقراطية والمجتمع المدني، لأن هذا الأخير يمثل الحاضن الشرعي للفكر الديمقراطي، لأنه من خلال هيئاته المختلفة يعبر عن صوت الشعب ولا يتترك مجالاً لهمش أي طبقة.

- يركز الفكر التوكفيلي كذلك على الدور الحيوي والفعال الذي يلعبه المجتمع المدني في تفعيل مشاركة كل أفراد المجتمع في الحياة السياسية والاقتصادية.

في نهاية المطاف وجب علينا التأكيد على ضرورة استغلال أفكار دو توكفيل في هذا الصدد لإعادة الاعتبار لدور المجتمع المدني الذي فقد الكثير من أهميته في ظل المجتمعات المعاصرة التي جرفها طوفان التقدم التقني والرقمي حتى أضحت مجتمعات مادية بامتياز وأهملت القيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية.

لقد أصبح جليا أنه كلما ازداد العلم تطورا كلما ازدادت الإنسانية تدهورا، والتدهور هنا لا بالمعنى التقني وإنما بالمعنى القيمي والروحي، إذ أن العلم وبالرغم مما وفره للفرد إلا أنه جعله في الآن ذاته يعيش حالة اغتراب جد رهيبا قد تنتهي به إلى أزمات نفسية جد عميقة ومعقدة. لذلك وجب علينا العودة إلى

أحضان المجتمع والتفاعل مع مختلف هيئاته وجمعياته حتى نضمن لذواتنا وأسرنا حياة نفسية واجتماعية متوازنة.

قائمة المراجع:

1. ألكسيس دو توكفيل، (2008)، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، تر: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
2. ألكسيس دي توكفيل، (2004)، الديمقراطية في أمريكا، تر: أمين مرسى قنديل، ج 1، عالم الكتب، القاهرة، مصر.
3. ألكسيس دي توكفيل، (2004)، الديمقراطية في أمريكا، تر: أمين مرسى قنديل، ج 2، عالم الكتب، القاهرة، مصر.
4. جوزيف إبستين، (2010)، المرشد إلى الديمقراطية، تر: سميرة ممدوح الشامي، ط 1، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر.
5. الحبيب الجنحاني، (1999)، المجتمع المدني بين النظرية والتطبيق، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 27، العدد 3، 1999.
6. الباز داود، (2006)، النظم السياسية للدولة والحكومة في ضوء الشريعة الإسلامية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية.
7. زرقة دليلة، (2022)، قراءة سوسيولوجية في مفهوم المجتمع المدني، مجلة تطوير، العدد 01، المجلد 09، 2022.
8. سعد الدين إبراهيم، (2002)، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2000.
9. بوداود عبيد، (2015)، ألكسيس دوتوكفيل قراءة في بعض مواقفه وأفكاره، مجلة القرطاس، العدد 02، 2015.
10. هارفي سي مانسفيلد، (2017)، توكيفل مقدمة قصيرة جدا، تر: مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.
11. Isidre MOLAS, (1990), Alexis de Tocqueville: The Traditionalist Roots of Democracy, Working Paper n. 9, Universitat Autònoma de Barcelona, Barcelona .
12. Paula Becker,(2008) , WHAT IS DEMOCRACY?, Realized by KMF-CNOE & NOVA STELLA, with the assistance of the Friedrich-Ebert-Stiftung (FES), and with the collaboration of Friedel Daiber (University of Trier).